عُلَماء اللاهوت

بقلم المعلم الأنطاكي الشماس اسبيرو جبور

حاشية: في العام 1955 إنتُدِبَ مرسال مرقس أي الأب الياس مرقس لإلقاء محاضرة في كلّية اللاهوت في أثينا عاصمة بلاد اليونان، فألقى محاضرةً في الفرنسية قال له أساتذة اللاهوت في إثرِها، "هذا هو اللاهوت الأرثوذكسي الحقيقي لا الذي نُدرِّسُهُ في كليّة اللاهوت هنا". هذا صحيح. لأن التدريس متأثِّر بالأساليب المعاصرة التنظيمية بينما اللاهوت هو حياة روحية وعمقٌ روحي وإرتفاعاتٌ صوفيّة روحيّة، لا تدريس منهجي أرسطَوي فلسفي. الفرق بين اللاهوت والفلسفة والعلمانية هو الفرق بين السماء والأرض.

تُطلِق الكنيسة الأرثوذكسيّة على ثلاثةِ قدّيسين لامعين لقب اللاهوتي "thélogos" باليونانية وهم: الإنجيلي يوحنا الرسول، غريغوريوس، وسمعان اللاهوتي الجديد. ففي اللاهوت الأرثوذكسي نُقَسِّم العلوم الدينية الى قسمَين: القسم الأول يتعلّق بالثالوث القدوس وهذا ما يُسمّى بعِلم اللاهوت "théologia" باليونانية، والثاني يتعلّق بربّنا يسوع المسيح الاله المتجسّد واسمُهُ التدبير الالهي، باليونانية" economia " . يوحنا الإنجيلي هو صاحبُ الإنجيل اللاهوتي الروحاني فيه تعليم عن سرِّ الثالوث القدوس بصورةٍ لامعة من كلام الرب يسوع نفسه. هذا لا يعني أن الإنجيليّين الثلاثة الباقين لم

يتكلّموا بسرِّ الثالوث القدّوس لا، ولكن يوحنا إستفاض في الأمر فعِبارة " عمِّدوهم بإسم الآب والإبن والروح القدس " لم ترِد إلا في نهاية إنجيل متى.

غريغوريوس اللاهوتي أنشأَ خمسَ خِطَبٍ في سرِّ الثالوث القدّوس وهي ألمعُ ما في المسيحية عن هذا السرّ وبها إهتدى اللاحقون جميعاً حتى إن مكسيموس المعترف يُسمّيه المعلِّم، أي بدلاً من أرسطو الذي يُسمّى للفلسفة ألمعلِّم.

وهناك له خِطبة في الظهور الالهي وخِطبة في المعمودية وخِطبة في العنصرة المجيدة وسوى ذلك، ولكنّه بارعٌ جداً في الكلام عن الثالوث القدوس. يوحنا الدمشقي إهتدى به، وبهما إهتدى اللاحقون جميعاً، وصار غريغوريوس اللاهوتي وحلفاؤه بما فيهم يوحنا الدمشقي وغريغوريوس بالاماس وحتى سمعان اللاهوتي الجديد في خطٍّ واحدٍ هو خط غريغوريوس اللاهوتي. أما سمعان اللاهوتي الجديد فهو مُتخلِّف في الزمان عن غريغوريوس لأنه من مواليد القرن العاشر. توفيّ في العام 1022 وهو صاحب أناشيد لاهوتية في الثالوث القدّوس وهي روعةٌ في العشق الالهي.

اللاهوتي هو الذي يتكلّم بسرِّ الثالوث القدّوس ويكون من عاشقي الثالوث القدّوس. فليست المسألة فزلكات كلامية بل هي عشقٌ الهيٌّ، هي تكلُّمٌ بالروح القدس. فيوحنا الإنجيلي وغريغوريوس اللاهوتي وسمعان اللاهوتي الجديد هم ناطقون بالروح القدس، هم عُشّاق الثالوث القدّوس. والكنيسة تحترم الآباء القدّيسين ليسَ بسبب تعليمهم فقط، بل بسبب عشقِهم الالهي، هم مساكن للروح القدس.

الكنيسة الأرثوذكسية تضع النبرة على القداسة الشخصيّة وعلى العشق الالهي. أوريجنس كان ذو عقلٍ جبّار وكان مفسّراً كبيراً، ناسكاً كبيراً ومُغالياً في النسك ولكنّه إرتكب أخطاءً. لذلك، دانَهُ المجمع الخامس المسكوني وما دانَهُ فقط، دان المتأثرّينَ به مثل أيفاغريوس بالرغم مما لديهم من أقوالٍ جيّدة. هؤلاء تأثّروا بافلاطون فرهرطقوا، فحرَمتهم الكنيسة.

ليست المسألة مسألة عِلم وبحث وفلسفة. المسألة هي مسألة إيمان أرثوذكسي صحيح لا غشّ فيه، ومسألة عشق إلهي يجتمع فيها الشرطان: العِلم الالهي والعشق الالهي.

النقّاد المعاصِرون هم عُلماء وباحثونَ كِبار، ولكن لم تمتزج كلمة الله في قلوبِهم بالإيمان كما تقول الرسالة الى العبرانيِّين، فلذلك هم مرفوضون في الكنبيسة.

إحدى طبعات المعجم الفرنسي Larrousse ذكَرَت أن Bultman الألماني هو لاهوتي بروتستانتي. هذا ضلالٌ مُبين وليس من اللاهوتي في شيء. هو باحثٌ كبير ولكن بدون إيمان، وفي النتيجة هو كافرٌ بالإيمان المسيحي.

المسألة ليست عقلاً، المسألة هي عشقٌ الهيٌّ وعِلمٌ الهيٌّ. والشيطان هو أذكى من الإنسان فقد جرَّبَ المسيحَ له المجد وهو يعرف الكتاب المقدّس بدقّة، ولكن هذا الشيطان لاهوتي؟ لا. فاللاهوتي هو المؤمن العاشق لله، الذي خلَبَ الثالوث القدّوس لُبّه فصارَ أسيرَ الثالوث القدّوس بالحبِّ والعشق والحياة الفاضلة الطاهرة اللامعة المستنيرة بالروح القدس. ولكن في العصور الحديثة نرى تسمية أساتذة الديانة في الجامعات لاهوتيِّين، هذا لا يعني أنهم باحثونَ فقط. ففيهُم قدِّيسون، والكنيسة الروسية

أعلَنت قداسة تيوفانيس بوبوف الحديث الروسي، والكنيسة اليوغسلافية أعلنَت قداسة يوستينوس بوبوفيتش وهو كاتبٌ لاهوتيٌّ جليل أَصدرَ كتاباً في العقائد هو مجموعةٌ من أقوال الآباء القدّيسين. أهم كتاب له " كتاب اللاهوت الأرثوذكسي" القائم إجمالاً على نصوص آباء الكنيسة. ولذلك فكتابه مفيدٌ جداً لأنه يستخلص العقائد من نصوص آباء الكنيسة. ثيوفانوس هو موسوعة آبائيّة كبيرة جداً، هو رجلٌ عملاق لديه 164 كتاب قائمة إجمالاً على نصوص آباء الكنيسة، فلذلك كتُبَه مفيدةٌ جداً .

ولذلك، تسمية أساتذة الجامعات باللاهوتيِّين هي تسمية مُستعارة وليست تسمية حقيقيَّة. التسمية الحقيقيِّة تنحصر بيوحنا الإنجيلي، بغريغوريوس، وبسمعان اللاهوتي الجديد وليسَ كلُّ أستاذ لاهوتٍ "باللاهوتي".

المطلوب فضلاً عن التعليم الأرثوذكسي القويم، طهارة السيرة الشخصيَّة والحياة الروحيَّة العميقة. والحياة الروحيَّة العميقة مربوطة بالنسك والصلاة وبالتألُّه، أي أن يكون الإنسان ممتلأً من الروح القدس. والكنيسة الأرثوذكسيِّة لا تُعجَب بالعِلم حصراً، الكنيسة الأرثوذكسيِّة تُطالب أولاً وأخيراً بطهارة الحياة الشخصيِّة الممتلئة من الروح القدس، الممتلئة من الصلاة.

نحن ننحني امام عشَّاق الرب يسوع، ننحني أمام السكارى بالرب يسوع المسيح. لم يكن آباء البرِّية عُلَماء دين ومع ذلك فَهُمْ قدّيسون. لماذا؟ لأنهم رجال صوم وصلاة. الإلتصاق بالله يكون بالصوم والصلاة لا بالمباحث العقليِّة الجافّة، والتكلُّم باللاهوت لا يكون بالحذاقة الفكريِّة بل يكون بالتسبيح.

سمعان اللاهوتي الجديد نموذج لاهوتي كبير جداً، جعَلَ عقيدة الثالوث القدوس شِعراً وتسبيحاً وشكراً. في النتيجة وعلى مذهب بولس الرسول في رسالتِه الى أفسس والى كولوسي، أن نُكلِّم بعضُنا بعضاً بتسابيح، بمزامير وأناشيد روحيّة وأن نُنشد للرب في القلب أناشيد بالروح القدس. سمعان اللاهوتي الجديد في أناشيدِه هو ممتلىءٌ من الروح القدس، ممتلىءٌ من العشقِ الالهي، ممتلىءٌ من النورِ الالهي. ولذلك فنحن بحاجة الى آباء كنيسة ممتلئين من الروح القدس وينطقون بالروح القدس، هؤلاء ينشرون رائحة الروح القدس في المؤمنين.

هل إستطاع الدهر أن يُمحي من ذاكرة الأرثوذكس باسيليوس وغريغوريوس ويوحنا فم الذهب؟ لا. لماذا؟ بسبب قداسة سيرَتِهم وأُلوهة تعاليمِهم. هم أبناء الروح القدس. تركوا لنا التعاليم الالهية، علّمونا الايمان الأرثوذكسي القويم. ولذلك نحن نفتخر بهم بإستمرار وليس بهم فقط بل بكل أندادِهم. يوحنا الدمشقي حوّلَ العقائد الى أناشيدٍ دينية. كنيستنا الأرثوذكسية مليئة من مِثل يوحنا الدمشقي ورفيقه كوزما، أفرام، وورومانوس الحمصي، حوّلوا العقائد والإيمان الى نشائدٍ روحية. كلُّ آباء الكنيسة يمتازون بالعشق الالهي، إن كانوا من آباء البراري او من آباء التعليم المسيحي. التركيز في كنيستنا هو على العشق الالهي وعلى الإمتلاء من الروح القدس، على التحوُّل الى صلوات وأصوام، على التحوُّل الى نُسّاك.

أمَا كان باسيليوس الكبير ويوحنا فم الذهب، ومكسيموس وسمعان اللاهوتي الجديد وغريغوريوس بالاماس وسواهم، نسّاكاً كِباراً ؟ أما تركَ Teofanes Tompov (المعروف بتيوفان الحبيس) عِمدة أكاديمية اللاهوت في بطرسبرغ والأسقفية، وإنزوى حبيساً ناسكاً؟

ما هو العِلمُ المجرّد الذي يستهوينا؟ الذي يستهوينا هو قداسة الشخص، سيرتُه وأعمالُه الصالحة. العشقُ الالهي والعمل الصالح هما الركيزتان الأُوليان لتقويمنا نحن البشر. قد يكون القديس راهباً ساذجاً، وقد يكون الباحث الديني مُلحِد. فهل نُقيمُ وزناً للملحدين؟ طَواهُم التاريخ. ولكن، هل إستطاع التاريخ أن يطوي غريغوريوس اللاهوتي؟ لا.

ما نحتاجُه بالكرسي الأنطاكي هو رِجال عِظام ممتلئين من آباء الكنيسة حتى الثَمالة، يجمعون الى إستيعابهم لآباء الكنيسة الصوم والصلاة والنُسك والسيرة الصالحة والعمل الصالح والنموذجية، أي أن يكونوا في خُطى المسيح ورُسُلِه الأطهار.

العِلمُ المجرّد قد يُفيد ولا يُفيد، ولكن النموذج الصالح هو الذي يُفيد. الرجال الذين يشعُّ منهم الروح القدس، هؤلاء هم الذين يُغيّرون وجهَ الأرض. ما الفائدة من مليون باحث ديني إن لم يكونوا مُتلألئين؟ فراهبٌ مُتلألئٌ يُضيئُنا أكثر من مليون من مِثلهم. نحن طلّاب معرفة دينية ولكن بالدرجة الأولى نحن طلّاب حداثةٍ. القدّيسون هم الذين يقودونَنا، القدّيسون هم مناراتُنا. فأهلاً بأهل العِلم إن كانوا قدِّيسين وأهلاً بالقدِّيسين سواءَ كانوا أهل عِلمٍ أو لم يكونوا.

بولس الرسول علّمَنا أن العلمَ ينفخ والمحبةَ تبني. فمَن جمَعَ العلمُ والمحبة فأهلاً وسهلاً به، ومَن جمعَ العِلمَ بلا محبة فنسأل الله أن يَهدِيَه. علينا أن لا نتأثّر بالنقّاد الغربيِّين. كلُّ ما كتبَهُ النقّاد الغربيِّين، هل هو مُفيدٌ للتقوى؟ لا. ونحن نسعى وراء التقوى. فالتقوى هي طعامُنا وشرابُنا الروحي، أما الإجترار العقلي فهذا لا يُقدِّم ولا يُأخِّر في شيء.

راعٍ ساذج هو القديس اسبيريدون العجائبي، هو يملأُ تاريخَنا. مليون باحث مثل Bultman (رودولف بولتمان) و Strauss وسواهما، لا يملأون عيونَنا كما نقول في اللغة العاميَّة ولا يَعنونَ لنا شيئاً. هذا الراعي اسبيريدون الساذج أعجوبة من أعاجيب الكنيسة وكذلك أيُّ راعٍ آخر متقدِّس مثلُه فهم يملؤون قلوبَنا. كم لدينا من الآباء الأبرار البُسطاء؟ لدينا كمية كبيرة منهم. هم قدّيسون ولهم أعياد وكرامات ونُنشد لهم الأناشيد. هل كان أنطونيوس الكبير فيلسوفاً؟ لا. هل كان بولس البسيط وأندادُه علماء؟ لا. ومع ذلك فهُم تيجان على رؤوسِنا.

لذلك نحن نحتاج الى القدّيسين. نُكرِّمُ بالدرجة الأولى القداسة. القدّيسون هم سادَتُنا، هم شُفعاؤنا لدى الله وسواهُم. هم في أرشيف التاريخ، والأرشيف يكون في مستودعاتٍ تحت الأرض. أما الآباء القديسون آباء البراري فهُم أنوارُنا، هم اللمعان الذي يُضيء حياتَنا، هؤلاء هم الإنجيل المتجسِّد. القداسة في الكنيسة متنوِّعة الأشكال، القداسة ممكنة لكلِّ إنسان في العالم إن كان ساذِجاً وإن كان عالماً. فكنيستُنا الأرثوذكسية إذن تُقدِّسُ السيرة الطاهرة. هذا هو المعاون الأول والأخير والباقي كلُّه زَبدٌ.

كل التفاسير المعاصرة الجافّة لا تُفيدُنا شيئاً في التقوى. لا تُعادل كتاب المواعظ الروحية المنسوبة الى مكاريوس الكبير وهي في حقيقتها الى سمعان الفُراتي وهو سوري في إعتبار العلماء اليوم. كتابُه هذا يُعادل أطنان الكتُب التي كُتِبَت في القرون الحديثة في التفاسير والدراسات والشروح. هذه المواعظ الروحية هي نُطقٌ الهيٌّ. الروح القدس ينطق فيها، مواعظٌ روحية عميقة تُلهِب المشاعر. هناك ايضاً اسحق النينوي. الرجوع الى الينابيع الآبائية هو شيءٌ مهمٌ جداً. فاذن، كلمة "لاهوتي" أصليّة تعني: الناطقين بسرِّ الثالوث القدوس ولا تعني عُلماء الدين. هؤلاء يُسَمَّون " أساتذة ديانة " يُعلِّمون في المعاهد والجامعات لا "لاهوتيّون" إلا إذا تلألأوا بالروح القدس، والتلألىء بالروح القدس يحتاج الى الصوم والصلاة والنسك والسيرة الصالحة والطهارة، روحاً وجسداً.

أنعَمَ الله علينا جميعاً بهذا الهدف العظيم بشفاعة سيدّتنا والدة الاله والرُسُل الأطهار وجميع القدّيسين آمين.